السلسلة التاريخية

تشارلز ديكنز





كويلپ

« مخزن الأنتيكا القديم »



القبطان كوتل

« دومبي وابنُه »



ساري غامب

« مارتن تشوزلويت »



بل سايكس

« اوليفر تويست »



المُحتال البارع

« اوليفر تويست »



فاغن

« اوليفر تويست »



سارجنت بزْفُز

« أوراق پيكوك »



توني ولّر

« أوراق پيكوك »



السيد سترايفر

« قصّة مدينتين »



السيد پكسنيف

« مارتن تشوزلويت »



دوللي ڤاردن

« بارنبي رودج »



السيد تورڤيدروب

« بليك هاوس »



فاني سكويرز

« نيكولاس نِيكلبي »



السيد سكويرز

« نيكولاس نِيكلبي »



نيومان نوغز

« نيكولاس نِيكلبي »



يوريا هيپ

« داڤيد كوپرْفيلد »



السيد دِك

« داڤيد كوپرْفيلد »



سكروج

« أغنية عيد ميلاد »

يُحَدِّثُنا هذا الكِتابُ عَنْ واحِدٍ مِنْ أَعْظَمِ كُتّابِ القِصَّةِ الّذينَ عَرَفَهُمُ العالَمُ . في كُتُبِهِ نَقْرَأُ وَصْفًا لِكَثيرٍ مِنَ الحَوادِثِ الّتي مَرَّتْ بِحَياتِهِ ، ولِلأَشْخاصِ الّذينَ عَرَفَهُمْ . وإِلَيْكُمْ قِصَّةَ حَياةِ هذا الكاتِبِ العَبْقَرِيِّ .

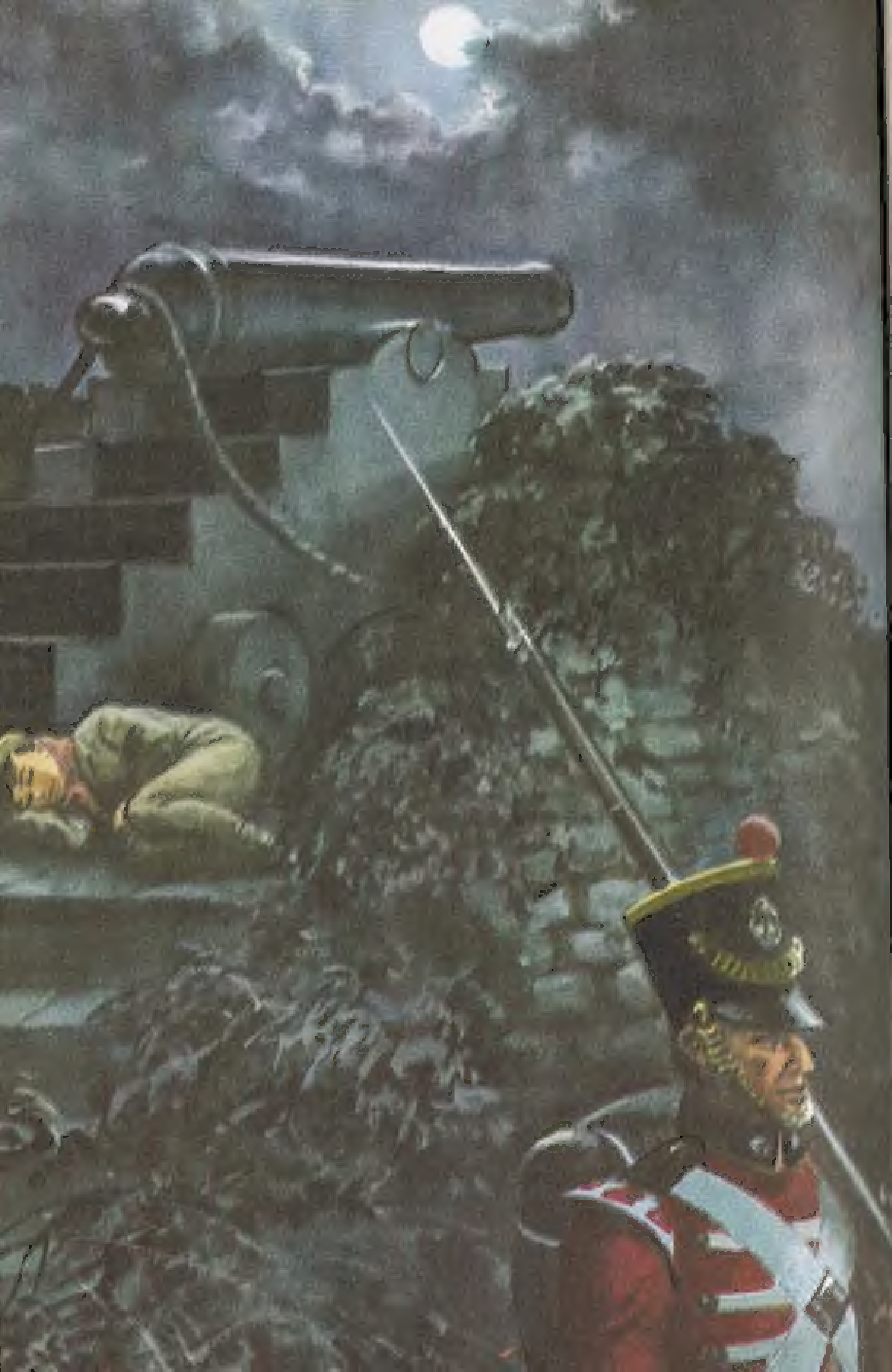
طبع في انكلترا
١٩٨٠

تشارلز ديكنز

تأليف : ل. دوغارد بيتش
نقله الى العربية : رجا حوراني
وضع الرسوم : جون كني



مكتبة لبنان



تشارلْز ديكِنْز

يُعْتَبَر تشارلْز دِيكِنْز واحِدًا مِنْ أَعْظَمِ كُتّاب القِصَّةِ في الإنْكليزيَّةِ أَوْ في أَيِّ لُغَةٍ أُخرى . وُلِدَ في « بورتْسِي » عام ١٨١٢ ، وكانَ أَبُوهُ مُوَظَّفًا في مَكْتَبِ دَفْعِ الرَّواتِبِ التّابِعِ لِلْبَحْرِيَّةِ ، وذا مَدْخُولٍ مُتَواضِعٍ جِدًّا . وعِنْدَما بَلَغَ تشارْلْز الثّانِيَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، انْتَقَلَتِ الأُسْرَةُ إِلَى تشاتام ، وبَقِيَتْ فِيها حَتَّى بُلُوغِهِ التّاسِعَةَ .

كانَتْ تشاتامُ مَكانًا رائِعًا تَرَعْرَعَ فِيهِ الفَتَى تشارْلْز . وقَدْ أَوْرَدَ بَعْدَ ذلِكَ في أَحَدِ كُتُبِهِ وَصْفًا لِبِيئَتِهِ فقال إِنَّها مُؤَلَّفَةٌ مِنَ العَساكِرِ ، والبَحّارَةِ ، واليَهُودِ ، والطَّباشِيرِ ، والقُرَيْدِس (الجَمْبَري) ، وعُمّالِ أَحْواضِ المِيناءِ والمَكاتِبِ .

وكانَتْ تُحِيطُ بتشاتامَ في تِلْكَ الأَيّامِ ، قَبْلَ عَصْرِ السَّيّارَةِ أَوِ القِطارِ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ ، تِلالٌ كِلْسِيَّةٌ وأَوْدِيَةٌ ، وأَزِقَّةٌ ومُسْتَنْقَعاتٌ ، تَرَكَتْ أَثَرًا لا يُمْحَى في ذاكِرَةِ تشارْلْز ظَهَرَ في كُتُبِهِ . في أَحَدِ أَشْهَرِ كُتُبِهِ « دافيد كُوبَرْفِيلْد » نَراهُ يُحَدِّثُنا عَنْ دافيد الصَّغيرِ ورِحْلَتِهِ الطَّوِيلَةِ المُوحِشَةِ ، مَشْيًا عَلَى الأَقْدامِ ، مِنْ لَنْدَنَ إِلَى دُوفَرَ ، وكَيْفَ نامَ ذاتَ لَيْلَةٍ عَلَى الحَشِيشِ النّابِتِ قُرْبَ بَطّارِيَّةِ مِدْفَعٍ مُشْرِفٍ عَلَى أَحَدِ المُنْعَطَفاتِ . وقَدِ اسْتَلْقَى قُرْبَ مِدْفَعٍ قَدِيمٍ ، مُسْتَسْلِمًا لِلْكَرَى ، عَلَى وَقْعِ أَقْدامِ حارِسِ البَطّارِيَّةِ الذي لَمْ يَكُنْ يَدْرِي بِوُجُودِهِ . ولا شَكَّ في أَنَّ تشارْلْز كانَ قَدْ تَسَلَّقَ مِدْفَعًا شَبِيهًا بِهذا ، في أَيّامِ طُفُولَتِهِ .



اِنْتَقَلَتِ الأُسْرَةُ إِلَى لَنْدَنَ عِنْدَما بَلَغَ تشارلْز دِيكِنْز التَّاسِعَةَ مِنْ عُمْرِهِ. وقَدْ وَلَّتِ الأَيّامُ الَّتِي كانَ يَتَمَتَّعُ بِها مُتَجَوِّلًا بَيْنَ التِّلالِ الكِلْسِيَّةِ، أَوْ مُكْتَشِفًا المَناطِقَ الشّاطِئِيَّةَ؛ ذٰلِكَ أَنَّ والِدَهُ «جُون دِيكِنْز» انْتَقَلَ وأُسْرَتَهُ إِلَى شارِعٍ ضَيِّقٍ مُعْتِمٍ مِنْ شَوارِعِ لَنْدَنَ، وبَعْدَ قَلِيلٍ وَجَدَ نَفْسَهُ غارِقًا فِي الدَّيْنِ.

وقَدْ قَضَتِ القَوانِينُ، فِي تِلْكَ الأَيّامِ، أَنَّ مَنْ لا يَفِي دَيْنَهُ، يُلْقَى بِهِ فِي سِجْنٍ مُرِيعٍ يُدْعَى «مارْشَلْسِي». وهٰكَذا أُودِعَ جون دِيكِنْز السِّجْنَ، تارِكًا زَوْجَتَهُ وأَوْلادَهُ لِتَدْبِيرِ أُمُورِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنْ.

كانَتْ والِدَةُ تشارْلْز فَقِيرَةً جِدًّا؛ وأَصْبَحَ لِزامًا عَلَى ابْنِها تَحْصِيلُ بَعْضِ المالِ. وهٰكَذا أُرْسِلَ تشارْلْز. وهُوَ فِي العاشِرَةِ مِنْ عُمْرِهِ، لِيَشْتَغِلَ فِي مَصْنَعٍ لِإِنْتاجِ الصِّباغِ الأَسْوَدِ. هُنا كانَ يَقْضِي السّاعاتِ الطِّوالَ يَوْمِيًّا، فِي قَبْوٍ قَذِرٍ مُعْتِمٍ يُلْصِقُ بِطاقاتٍ عَلَى زُجاجاتِ البُويا السَّوْداءِ. وكانَ يَتَقاضَى عَلَى عَمَلِهِ هٰذا سِتَّةَ شِلْناتٍ فِي الأُسْبُوعِ.

وعِنْدَما شَرَعَ تشارْلْزُ بِكِتابَةِ مُؤَلَّفِهِ «دافِيد كُوبَرْفِيلد» تَذَكَّرَ أَيّامَ زِياراتِهِ لِوالِدِهِ فِي السِّجْنِ، والأَيّامَ التَّعِسَةَ الَّتِي قَضاها فِي مَصْنَعِ الأَصْبِغَةِ، فَوَصَفَ لَنا عامِلًا فِي مُسْتَوْدَعٍ لِلْبَضائِعِ اهْتَرَأَتْ أَرْضُهُ، ونَخَرَ السُّوسُ سُلَّمَهُ، فَضْلًا عَنِ الجِرْذانِ الكَبِيرَةِ الغُبْرِ الَّتِي كانَتْ تَتَعارَكُ فِي القَبْوِ.



لَقَدْ صَوَّرَ دِيكِنْز أَباهُ في شَخْصِيَّةِ «ميكُوبَرَ» في مُؤَلَّفِهِ «دافيد كوبَرْفيلْد». وميكُوبَرُ هذا، الَّذي تَرَى رَسْمَهُ في الصَّفْحَةِ المُقابِلَةِ، كانَ أَيْضًا فَقيرًا جِدًّا، ويَتَوَقَّعُ دَوْمًا حُدُوثَ شَيْءٍ غَيْرِ مُنْتَظَرٍ. وفِعْلًا حَدَثَ الشَّيْءُ الجَديدُ، إِذْ وَرِثَ جُون دِيكِنْز بَعْضَ المالِ، وتَمَكَّنَ مِنْ مُغادَرَةِ سِجْنِ مارشَلْسي.

وتَمَكَّنَ تشارْلْزُ أَيْضًا مِنْ مُغادَرَةِ مَصْنَعِ الأَصْبِغَةِ. وعادَ إِلَى المَدْرَسَةِ مُدَّةَ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلاثٍ. وإِذا كانَتْ مَدارِسُ الذُّكُورِ، الَّتي وَصَفَها فيما بَعْدُ في كُتُبِهِ، نَمُوذَجًا لِلْمَدارِسِ الَّتي كانَتْ في أَيّامِهِ، فإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَعيدًا جِدًّا في أَيّامِ تَلْمَذَتِهِ.

كانَتْ تِلْكَ الأَيّامُ قَصيرَةً، إِذْ تَرَكَ المَدْرَسَةَ، وهُوَ في الرّابِعَةَ عَشْرَةَ أَوْ الخامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، والتَحَقَ بِمَكْتَبِ مُحامٍ في جَمْعِيَّةِ غْراي الحُقُوقِيَّةِ الشَّهيرَةِ بِلَنْدَنَ.

كانَ دِيكِنْز يَمْتازُ بِذاكِرَةٍ حادَّةٍ، فالمُدَّةُ الَّتي قَضاها في مَكْتَبِ المُحامي (١٨ شَهْرًا) كانَتْ مَصْدَرَ ذِكْرَياتٍ عَنْ أُناسٍ غَريبي الأَطْوارِ تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ. وساعَدَتْهُ تِلْكَ الحِقْبَةُ عَلَى مَعْرِفَةِ القانُونِ أَيْضًا، حَيْثُ تَمَكَّنَ، فيما بَعْدُ، مِنْ كِتابَةِ قِصَصٍ طَريفَةٍ عَنِ المُحاماةِ والمُحامينَ.

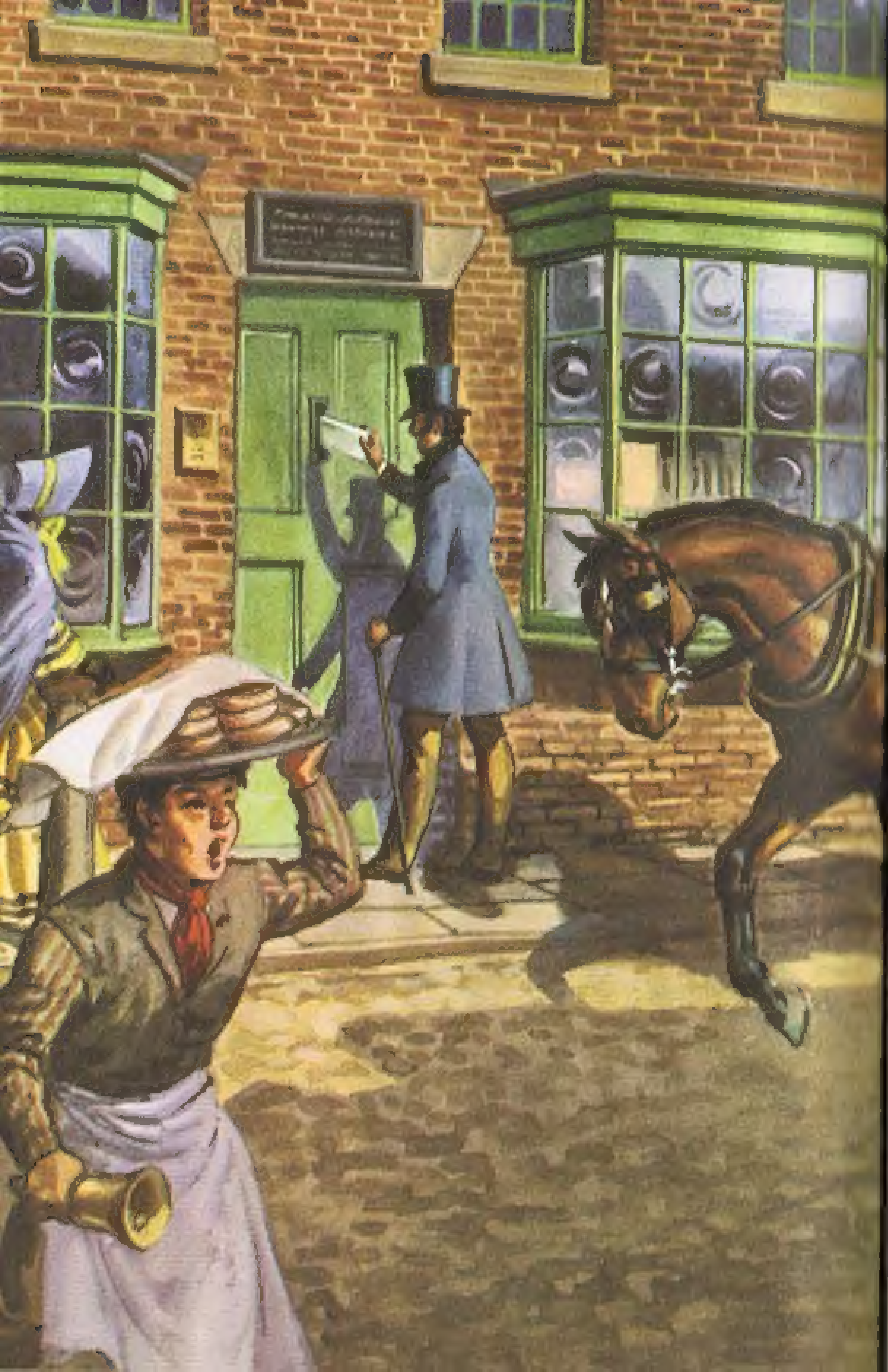


لَمْ يَكُنْ ديكِنْز يَرْغَبُ في البَقاءِ مُوَظَّفًا في مَكْتَبِ مُحامٍ . ولِذا وَضَعَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ تَحْسينَ مَرْكَزِهِ ، وبَدَأَ تَعَلُّمَ الاَخْتِزالِ ، المِهْنَةِ الّتي كانَتْ يَوْمَذاكَ أَصْعَبَ مِنْها اليَوْمَ .

وفي مُدَّةٍ قَصيرَةٍ أَصْبَحَ ماهِرًا بِحَيْثُ عُيِّنَ مُخْبِرًا صَحفيًا لِجَريدَةِ «مُورْنِنْغ كْرُونِيكِل» . وبِحُكْمِ عَمَلِهِ هٰذا ، كانَ مُضْطَرًا لِلْقِيامِ بِرِحْلاتٍ خارِجَ لَنْدَنَ ، بِواسِطَةِ عَرَباتٍ تَجُرّها الخَيْلُ عَلى طُرُقاتٍ غَيْرِ مُعَبَّدَةٍ . وقَدْ كَتَبَ بَعْدَ سَنَواتٍ عَنْ ذٰلِكَ :

« كَمْ مِنْ مَرَّةٍ بَعَثْتُ لِلنّاشِرِ بِخُطَبٍ مُهِمَّةٍ نَقَلْتُها عَنِ اخْتِزالاتٍ دَوَّنْتُها عَلى راحَةِ كَفّي ، في ضَوْءِ قِنْديلٍ ضَعيفٍ ، داخِلَ مَرْكَبَةِ أُجْرَةٍ ، ذاتِ أَرْبَعِ عَجَلاتٍ تَجُرُّها أَرْبَعَةُ جِيادٍ في البَراري المُوحِشَةِ ، في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وبِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ : خَمْسَةَ عَشَرَ ميلًا في السّاعَةِ » .

ويُعْطينا بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ صُورَةً أُخْرَى عَنِ الظُّرُوفِ الّتي كانَ يَعْمَلُ فيها ، فَيَقُولُ : « أَعْتَقِدُ حَقًّا أَنّي تَعَرَّضْتُ لِلانْزِعاجِ في جَميعِ وَسائِلِ النَّقْلِ . تَأَخَّرْتُ عَلى طُرُقٍ مُوْحِلَةٍ حَتّى طُلُوعِ الفَجْرِ ، وأَنا عَلى بُعْدِ خَمْسينَ ميلًا عَنْ لَنْدَنَ ، في عَرَبَةٍ مُعَطَّلَةِ الدَّواليبِ ، تَجُرُّها خُيُولٌ مَنْهُوكَةٌ ، ولٰكِنّي وَصَلْتُ في الوَقْتِ المَطْلُوبِ ، وسَلَّمْتُ المَوادَّ لِلطَّبْعِ » . ظَهَرَتْ ذِكْرَياتٌ كَهٰذِهِ في قَصَصِهِ مِرارًا وتَكْرارًا .



بَدأ ديكِنْز كِتابَةَ القِصَص مُنْذُ كانَ صَبِيًّا في المَدْرَسَةِ . وكانَ يَرْغَبُ ، كَغَيْرِهِ مِنْ كُتّاب القِصَّةِ ، في رُؤْيَةِ إحْدى قِصَصه مطْبُوعةً . وعِنْدَما بَلَغَ الحادِيَةَ والعِشْرين ، أَعادَ بِعِنايَةٍ كِتابَةَ قِصَّةٍ لَهُ عنْوانُها : « غَداءٌ بَيْنَ أَشْجارِ الحَوْرِ » إعْدادًا لِلنَّشْرِ .

وكانَتْ تُطْبَعُ في لَنْدَنَ نَشْرَةٌ ٱسْمُها « المجلَّة الشَّهْرِيَّة » . فقرَّرَ الشّابُّ الجَرِيءُ السَّيِّدُ ديكِنْز أَنْ يُرْسِلَ قِصَّتَهُ إلى مُحرِّرِ تِلْكَ المَجلَّة . وحُبًّا بِتوْفيرِ قيْمَةِ الطّابِـعِ البريدِيِّ ذَهبَ بِنفْسِهِ إلى إدارةِ المَجلَّة ووَضعَ القِصَّةَ في صُنْدُوق الرَّسائِل .

لَمْ تكُنِ القِصَّةُ جَيِّدَةً جدًّا ، ولكِنَّها نُشِرتْ . وقَدْ كَتبَ ديكِنْز فيما بَعْدُ يَقُولُ : إنَّهُ حينَما رَأى قِصَّتَهُ مطْبُوعةً اغْرَوْرَقَتْ عَيْناهُ بِدُمُوعِ الفَرحِ والاعْتِزاز . كانَ ذٰلِكَ يوْمًا عظيمًا في حَياةِ تشارْلْز ديكِنْز ، بَلْ هُوَ أَعْظَمُ بِكَثيرٍ بالنِّسْبَةِ إلى مَلايينِ النّاسِ الَّذين يَسْتَمْتِعُونَ بِقِراءَةِ قِصَصِهِ في جَميعِ أَنْحاءِ العالَمِ .

يُمْكِنُكَ قِراءَةُ هٰذِهِ القِصَّةِ في كِتابٍ عُنْوانُهُ « صُوَرٌ ومَشاهِدُ بِقَلَمِ بَظْ » ، تغَيَّرَ فيهِ عُنْوانُ القِصَّةِ فَأَصْبحَ « السَّيِّد منْز وٱبْن عَمِّهِ » . لَمْ يَنَلْ تشارْلْز أَيَّةَ مُكافَأَةٍ مالِيَّةٍ على قِصَّتِهِ هٰذِهِ . ولعَلَّهُ لَمْ يَتَوَقَّعِ المُكافَأَةَ . كانَ سُرُورُهُ بِرُؤْيَةِ قِصَّتِهِ مَطْبُوعَةً المُكافَأَةَ الوَحيدَةَ الَّتي أَرادَها .



كانَ ديكِنْز قصّاصًا مَوْهُوبًا بالفِطْرةِ . فالكِتابةُ هيَّأَتْ لهُ أَسْعَدَ لَحَظاتِ عُمْرِهِ . والآنَ ، بَعْدَ أَنْ وَجدَ مَنْ يَنْشُرُ لهُ قِصصَهُ ، أَصْبحَت الكِتابةُ تَغْمُرُ حياتَهُ سَعادةً . وكانَ هَمُّهُ الوَحيدُ ، وهُوَ بَعْدُ شابٌّ في الحاديةِ والعِشْرين ، نَشْرَ قِصصِهِ ، سِيَّانِ عِنْدَهُ ، أَدُفِعَ لهُ مالٌ أَمْ لَمْ يُدْفَعْ . عَلَى أَنَّهُ تَغيَّرَ فيما بَعْدُ ، وأَصْبحَ رَجُلَ أَعْمالٍ أَيْضًا .

وفي فَتْرةٍ وَجيزةٍ ، كانَتْ لدَيْهِ مَجْمُوعةٌ مِنَ القِصَصِ تَقعُ في جُزْأَيْنِ مُذَيَّلةٌ بِتَوْقيعِ «بظ» ، وهُوَ لَقبُ أَخيهِ المُحبَّبِ عِنْدَما كانَ صَبيًّا ، وأَصْبحَ فيما بَعْدُ مِنْ أَشْهَرِ الأَلْقابِ في العالَمِ .

وأَخيرًا أَصْبحَ ديكِنْز يتَقاضَى مالًا عَلَى قِصصِهِ . فَقَدْ نالَ عَلَى كِتابِهِ «صُوَرٌ ومَشاهِدُ» مِئةً وخَمْسينَ جُنيهًا ، وهِيَ ثَرْوةٌ ضَخْمةٌ ، في تِلْكَ الأَيّامِ ، بالنِّسْبةِ لِكاتِبٍ ناشِئٍ .

ولكِنَّ نَجاحَهُ في كِتابِ «صُوَر ومَشاهِد» أَفادَهُ بِأَكْثَرَ مِنَ المالِ ، إِذْ زارَهُ رَجُلانِ مِنْ ذَوي الشَّأْنِ ، هُما السَّيِّدانِ «تشابمان وهُول» مِنْ ناشِري الكُتُبِ ، اللّذانِ أَدْهَشَهُما أَنْ يَريا ديكِنْز لَيْسَ سِوَى شابٍّ في الرّابِعةِ والعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ ، ومَعَ ذلِكَ عَرَضا عليْهِ كِتابَةَ صُوَرٍ وَصْفيَّةٍ كَثيرةٍ تَتَناوَلُ بَعْضَ أَحْداثِ الرِّياضَة .



لَمْ يَكُنْ ديكِنْز يَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ الرِّياضَةِ . فالصَّيْدُ بِجَميعِ أَشْكالِهِ ، حَتَّى لُعْبَةُ «الكِريكيت» كانَ يَجْهَلُها . إنَّهُ ، كشابٍّ ، كانَ يَتُوقُ لِتحْصِيلِ المالِ ، ولكِنَّهُ ككاتِبٍ يرْفُضُ الكِتابَةَ عَنْ أَشْياءَ لا يَعْرِفُها .

اِقْتَرَحَ عَلَيْهِ النّاشِرانِ أَنْ يَتناوَلَ في مَقالاتِهِ نادِيًا لِلرِّياضَةِ ، يُرَكِّزُ فيها عَلَى إِخْفاقِ أَعْضاءِ النّادي وسُوءِ حَظِّهِمْ . ولكِنَّ ديكِنْز رَأَى أَنَّ مُغـامَراتِ أُولئِكَ الرِّجالِ يَجِبُ أَنْ تَشْمُلَ أَشْياءَ أُخْرى غَيْرَ الإِخْفاقِ والحَظِّ العاثِرِ . وبَعْدَ نِقاشٍ وافَقَ النّاشِرانِ ، وتُرِكَ لَهُ أَمْرُ اخْتِيارِ المَواضِيعِ .

أَصْبَحَ اسْمُ «پيكْوِك» عَلَى كُلِّ لِسانٍ . ويَظْهَرُ رَسْمُهُ هُنا مَعَ «سامْ وِلَّر» خادِمِهِ الأَمينِ . لَقَدْ وُفِّقَ ديكِنْز كَثيرًا في اخْتِيارِ اسْمِ «پيكْوِك» .

وأَطْلَقَ عَلَى مَجْمُوعَةِ قِصَصِهِ اسْمَ «أَوْراق پيكْوِك» الَّتي كانَتْ تَصْدُرُ شَهْرِيًّا . لَمْ يُبَعْ مِنَ العَدَدِ الأَوَّلِ سِوى أَرْبَعمِئَةِ نُسْخَةٍ . ولكِنَّ تَزايُدَ المَبيعاتِ اسْتَمَرَّ حَتّى بَلَغَ عَدَدُ النُّسَخِ المَبيعَةِ مِنَ العَـــدَدِ الخامِسَ عَشَرَ أَرْبَعينَ أَلْفَ نُسْخَةٍ .

اِسْتَأْثَرَتْ مُغامَراتُ «پيكوك» بِاهْتِمامِ الجَميعِ . فكانَتِ الجَماهِيرُ تَتَرَقَّبُ وُصُولَ عَرَباتِ السَّفَرِ القادِمَةِ مِنْ لَنْدَنَ ، لِتَشْتَرِيَ العَدَدَ الجَديدَ مِنْ «أَوْراقِ پيكْوِك» .



وعِنْدما بَلَغَ ديكِنْزُ الخامِسَةَ والعِشْرِين لمع ٱسْمُهُ فجْأةً . فأَصْبَح واحِدًا مِنْ أَشْهَرِ الكُتّاب في البِلادِ . وفجْأةً ، أَصْبح بفضل كدهِ غَنِيًّا . وهٰذا مَكَّنَهُ مِنَ الزَّواجِ بِٱبْنَةِ أَوَّلِ ناشِرٍ لِكُتُبِهِ .

ولوْ رجعْنا إلَى الزَّمنِ الّذي تَمَّ فيهِ زواجُ تشارْلْز ديكِنْز بِكاثْرين هُوْغارْثَ ، لَرَأَيْنا إنْكِلْترا تَخْتلِفُ كَثيرًا عنْها اليَوْم . تمَّ عَقْدُ الزَّواجِ في أَحَدِ أَيّامِ نَيْسانَ مِنْ عام ١٨٣٦ ، وذٰلِكَ قَبْلَ أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ مِنَ ٱعْتِلاءِ المَلِكَةِ فِكْتُوريا العَرْشَ .

كان ذٰلِك في أَوَّلِ عَهْدِ القِطارِ ، حَيْثُ بَدَأَ النّاسُ يَسْتَقِلُّونَهُ ، وكانَ بطيئًا وغيْرَ مُريحٍ فَمُعْظَمُ الأَسْفار كانَتْ تَتِمُّ بواسطَةِ مَرْكَباتٍ تَجُرُّها الخَيْلُ عَلَى طُرُقٍ غَيْرِ مُعَبَّدةٍ وكانَ ٱجْتِيازُ مسافةِ ثَمانِيَةِ أَمْيالٍ أَوْ عَشَرَةٍ في السّاعَةِ يُعْتَبَرُ سُرْعَةً قُصْوَى

لَوْ نَظَرْنا إلَى ما كانَ يَلْبَسُهُ الرِّجالُ والنِّساءُ لوجدْناهُ غيْرَ عَمليٍّ لا شكَّ في أَنَّهُمْ كانُوا يَلْبَسُون أَكْثَر جدًّا مِمّا يفعلُون اليَوْم . ويُريكَ الرَّسْمُ على الصَّفْحَةِ المُقابلةِ كَيْفَ كانَ الإنْكليزُ يَلْبَسُون عامَ ١٨٣٦ ولا ريْبَ في أَنَّ ملابسَ النِّساءِ الطَّويلَةَ كانَتْ تَتَّسِخُ بِسُرْعَةٍ بِسَبَبِ الشَّوارِعِ الكَثيرَةِ الوُحُولِ .



لا يَغْرُبُ عَنْ بالِنا أَنَّ ديكِنْز كانَ رَجُلًا عَمَلِيًّا جِدًّا . أَحَبَّ فِعْلَ الأَشْياءِ بِقَدْرِ ما أَحَبَّ الكِتابَةَ عَنْها . وعاشَ حَياتَهُ كُلَّها مُحِبًّا لِلنَّشاطِ ، وكارِهًا لِلْكَسَلِ .

كانَ بِاسْتِطاعَتِهِ دائِمًا إِنْجازُ أَمْرَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ في آنٍ واحِدٍ . فَفي أَثْناءِ كِتابَةِ « بيكوك » أَصْبَحَ مُحَرِّرًا لِمَجَلَّةٍ جَديدَةٍ ، اسْمُها « مُنَوَّعات بِنْتلي » الَّتي ظَهَرَتْ عَلَى صَفَحاتِها رِوايَتُهُ « أوليفَرْ تويسْت » . أَيْ أَنَّهُ كانَ يَتَوَلَّى تَحْريرَ مَجَلَّةٍ وتَأْليفَ رِوايَتَيْنِ كَبيرتَيْنِ في آنٍ واحِدٍ .

كُلُّ هٰذا لَمْ يَكُنْ لِيُرْضِيَ طَبيعَتَهُ النَّشيطَةَ . هٰذا عَدا ذَهابِهِ كَثيرًا إِلَى المَطْبَعَةِ ، لِمُراقَبَةِ عَمَلِيَّةِ تَنْضيدِ الحُرُوفِ .

في تِلْكَ الأَيّامِ كانَتْ حُرُوفُ جَميعِ الكُتُبِ والصُّحُفِ تُنَضَّدُ بِاليَدِ ، وكانَتِ الحُرُوفُ مُوَزَّعَةً في صَناديقَ خَشَبِيَّةٍ صَغيرةٍ ، وكانَ المُنَضِّدُ يَلْتَقِطُ حَرْفًا مِنْ هُنا وحَرْفًا مِنْ هُناكَ لِيُؤَلِّفَ كَلِمَةً أَوْ جُمْلَةً . ويَفْعَلُ هٰذا بِمَهارَةٍ ، وبِصُورَةٍ آلِيَّةٍ . وعِنْدَما تَتَجَمَّعُ لَدَيْهِ صَفْحَةٌ كامِلَةٌ يُطَوِّقُها بِإِطارٍ حَديدِيٍّ إِعْدادًا لِطَبْعِ . ولا شَكَّ في أَنَّ تشارْلز ديكِنْز جَرَّبَ عَمَلِيَّةَ تَنْضيدِ الحُرُوفِ هٰذِهِ



كانَ لَهُ هَدَفٌ مِنْ قِصَّةِ «أوليفَرْ تويِسْت». وقَدْ سَبَقَ لَهُ في قِصَّةِ «بيكويك» أَنْ جَعَلَ النّاسَ يَخْجَلُونَ مِنْ سُوءِ المُعامَلَةِ السّائِدَةِ في سِجْنِ مارْشَلْسِي الفَظيعِ. وكانَتْ مقالاتُهُ مِنَ الأَسْبابِ الّتي أَدَّتْ إِلى إِلْغاءِ تِلْكَ السُّجُونِ.

أمّا في «أوليفَرْ تويِسْت» فكانَ عليْهِ أَن يَجْعَلَ النّاسَ يَذْكُرُونَ كَيْفَ كانَ يُعامِلُ الفُقَراءَ عَلَى أَيْدِي مَنْ كُلِّفُوا بِرِعايَتِهِمْ لِقاءَ أَجْرٍ يَتَقاضَوْنَهُ.

كانَ ديكِنْزُ فَقيرًا جدًّا في حَداثَتِهِ. في جَميعِ قِصَصِهِ كانَ يَهْدُفُ إِلَى تَحْسينِ مُعامَلَةِ النّاسِ لِمَنْ هُمْ أَقَلُّ حَظًّا. وقَدْ تَوَصَّلَ إِلى غايَتِهِ هٰذِهِ بِفَضْلِ إِقْبالِ النّاسِ عَلَى قِراءَةِ رِواياتِهِ المُمْتازَةِ.

بَيْنَ شَخْصِيّاتِ رِوايَةِ «أوليفَرْ تويِسْت» رَجُلٌ اسْمُهُ «بامْبِل» كانَ عَمَلُهُ تَنْفيذَ أَوامِرِ مَجْلِسِ الأَبْرَشِيَّةِ. وقَدْ أَرانا ديكِنْزُ ما يَحُلُّ بالأَيْتامِ الفُقَراءِ أَمْثالِ «أوليفَرْ تويِسْت» عِنْدَما يَكُونُونَ تَحْتَ رَحْمَةِ رَجُلٍ ضَخْمِ الجُثَّةِ، ومُنْتَفِخٍ بِعَظَمَتِهِ الفارِغَةِ، ومُجَرَّدٍ مِنْ أَيِّ عَطْفٍ. إِنَّها صُورَةٌ حَقيقِيَّةٌ خَبَرَها ديكِنْز بِنَفْسِهِ.

طَلَبَ أوليفَرُ الجائِعُ المِسْكينُ مَرَّةً زِيادَةً مِنَ الثَّريدِ وعلَيْكَ أَنْ تَقْرَأَ قِصَّتَهُ يَوْمًا ما لِتَعْرِفَ ما حَلَّ بِهِ.



كانَ تشارلْز ديكِنز مُمَثِّلًا بارِعًا . وآشْتَرَك بتمْثيل رواياتٍ نَظَّمَها أَصْدِقاؤهُ . وقَبْلَما بَدَأَ كِتابَةَ «پيكوك» حاول كِتابَةَ الرِّوايات .

لَمْ تَكُنْ رِواياتُهُ جَيِّدَةً جِدًّا ، على أَنَّ إحْداها : «مُبارزة ونِغِلْبَري الكُبْرى» مُثِّلَتْ سَبْعِينَ لَيْلَةً في لَنْدَنَ وكَتَب مسْرحيَّةً مُوسيقِيَّةً اسْتاءَ مِنْها النّاسُ جَميعًا بِحَيْثُ لَمْ يَجْرُؤْ عَلى إعادةِ الكرَّةِ .

كانَتِ الرِّواياتُ في زَمَنِ ديكِنْز عَلى ثَلاثَةِ أَنْواعٍ : المَلْهاةِ ، والمَسْرَحِيَّةِ ، والهَزْلِيَّةِ السّاخِرَةِ . كانَ بِاسْتِطاعَتِهِ الكِتابَةُ السّاخِرَةُ كما ظَهَرَ في «أَوْراق پيكوك» ولكِنْ ، لِسَبَبٍ ما ، لَمْ يكُنْ نَوْعُ سُخْرِيَّتِهِ مُلائِمًا لِلْمَسْرَحِ .

لَقَدْ وَصف ديكِنْزُ بَعْضَ المَسارِحِ وَصْفًا لاذِعًا . وفي الواقِع كانَتِ الفَوْضى تعُمُّ أَكْثَرَها ، والتَّشْويشُ وعَدَمُ الانْضباطِ مِنْ صِفاتِ رُوّادِها . وكانَ أَصْحابُها ، في رَأْيِ ديكِنْز ، مِنْ ذوي الأَخْلاقِ السّافِلَةِ . وأَحْسَنُ مسارح لَنْدَن نَفْسِها كانَتْ صاخِبَةً وأَشَدَّ تشويشًا مِنْ مسارحِ اليَوْمِ . كانَ المُشاهِدُون ، إذا لَمْ تُعْجِبْهُمُ الرِّوايَةُ ، يَرْشُقُون المُمَثِّلِينَ بِقُشُورِ البُرْتُقالِ والزُّجاجات الفارِغَةِ . إِنَّهُ لَأَمْرٌ جائِرٌ ! كانَ الأَوْلَى بِهِمْ أَنْ يَرْشُقُوا بها مُؤَلِّف الرِّوايةِ ، ولكِنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ .



يُحِبُّ أَكْثَرُ الأَوْلادِ ، في أَيّامِنا هٰذِهِ ، الذَّهابَ إِلَى المَدْرَسَةِ . ولكِنْ في أَيّام ديكنز كانُوا يَرْهَبُونَها ، بَلْ كانُوا يَشْعُرُونَ بالتَّعاسةِ عِنْدَ انْتِهاءِ العُطْلَةِ المَدْرسِيَّةِ .

في قِصَّتِهِ التّالِيَةِ « نيكُولاس نيكِلْبي » أَرادَ ديكِنْز تَعْرِيفَ جَميعِ النّاسِ عَلَى حقِيقَةِ ما كان يَجْري في تِلْكَ المَدارس . فالمَدْرَسَةُ الَّتي أَطْلَقَ عَلَيْها اسْم « دُوتْ بُويزْهُول » ما هِيَ إِلّا صُورَةٌ مُصَغَّرَةٌ عَنِ المَدارسِ الَّتي كانَتْ في أَيّامِهِ . إِنَّها كانَتْ فِعْلًا أَمْكِنَةً رَهيبَةً .

كانَ نيكولاس نيكِلْبي مُساعِد مُعلِم . أَمّا المَدْرَسةُ ذاتُها فكانَتْ : « غُرْفَةً قَذِرَةً ، خالِيَةً مِنَ الأَثاثِ ، فيها نافِذَتانِ يَدْخُلُ النُّورُ مِنْ عُشْرِهِما ، وباقي الأَجْزاءِ مَسْدُودَةٌ بالدَّفاترِ القديمةِ والأَوْراقِ . وهُنالِكَ مَقْعَدانِ طَويلانِ ، عَتيقانِ ومُكَسَّرانِ ، ومُحَفَّرانِ ، ومُلَطَّخانِ بالحبْرِ ، ومُشَوَّهانِ بِكُلِّ وَسائِلِ التَّشْويهِ » .

كان السَّيِّدُ « سْكويرز » مُديرُ المَدْرَسَةِ مَكْرُوهًا جِدًّا . وكانَتْ زَوْجَتُهُ أَسْوَأَ مِنْهُ ، فكانَتْ تُجَرِّعُ التَّلاميذَ المَنْكُودِينَ ، كُلَّ يَوْمٍ ، قَبْلَ الفُطُور ، جَرَعاتٍ مِنْ مَزيجٍ كَرِيهٍ مِنْ دِبْسِ السُّكَّرِ والكِبْرِيتِ ، لِكَيْ تُضْعِفَ شَهِيَّتَهُمْ لِلطَّعامِ .



لَقَدْ تَرَعْرَعَ دِيكِنْز فِي تشاتامْ بَيْنَ أَحْواضِ السُّفُنِ والأَرْصِفَةِ ، ولِذا أَحَبَّ البَحْرَ طُولَ أَيّامِ حَياتِهِ . وعِنْدَما كَبِرَ وأَصْبَحَ فِي إِمْكانِهِ أَنْ يُقِيمَ حَيْثُ شاءَ . صارَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ برايْتون . ودُوفَر . وبرُودْستيرْز وكانَتْ الأَخِيرَةُ أَحَبَّ الأَماكِنِ إِلَيْهِ ، لِأَنَّها قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ يَقْصِدُها صَيّادُو الأَسْماكِ . وتَقَعُ عَلَى الشاطِئِ الشَّرْقِيِّ مِنْ « كَنْت » .

لَقَدْ أَصْبَحَ البَيْتُ الَّذي سَكَنَهُ في بْرُودْستيرْز مَعْرُوفًا بِاسْمِ « بلِيك هَوْس » وهُوَ عُنْوانُ رِوايَةٍ كَتَبَها بَعْدَ زِيارَتِهِ الأَخِيرَةِ لِتِلْكَ القَرْيَةِ .

لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ التَّعَرُّفُ إِلَى « بْرُودْستيرز » اليَوْمَ اسْتِنادًا لِوَصْفِ دِيكِنْز لَها عامَ ١٨٤٠ . وقَدْ وَصَفَها ووَصَفَ نَفْسَهُ في رِسالَةٍ جاءَ فيها : « إِنَّها مَكانٌ صَغِيرٌ لِصَيْدِ السَّمَكِ . هادِئٌ جِدًّا . وبَيْتُنا مَبْنِيٌّ عَلَى مُنْحَدَرٍ صَخْرِيٍّ شاهِقٍ عِنْدَ الشّاطِئِ . وفي نافِذَةٍ نائِيَةٍ مِنْهُ ، تُطِلُّ عَلَى الخَلِيجِ ، يَجْلِسُ رَجُلٌ ذُو شَعْرٍ طَوِيلٍ مُتَدَلٍّ ، دُونَ رَبْطَةِ عُنُقٍ ، مِنَ التّاسِعَةِ صَباحًا حَتَّى الواحِدَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ ، يَكْتُبُ . ويَبْتَسِمُ ويُكَشِّرُ ، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ مُهَرِّجٌ حَقًّا هٰذا الكاتِبُ هُوَ بَطٌّ » .

كانَتْ مَسابِحُ البَحْرِ عامَ ١٨٤٠ شَبِيهَةً بِالرَّسْمِ في الصَّفْحَةِ المُقابِلَةِ الَّتي تَظْهَرُ فِيها أَدَواتُ الاسْتِحْمامِ الغَرِيبَةُ ومَلابِسُ الرِّجالِ والنِّساءِ غَيْرُ المُلائِمَةِ .



أَصْبَحتِ العُطْلَةُ في أَيامِنا هذِهِ أَمْرًا عاديًّا نتمتّعُ بها على شاطِئِ البَحْرِ أَوْ في الرّيفِ . ولكِنْ في النِّصْفِ الأَوّلِ من القرْنِ الماضي ، في عَصْرِ ديكِنز ، لمْ يكُنْ في وُسْعِ النّاس في إِنْكلْترا تَحَمُّلُ نفقاتِ العُطْلَةِ ، لِأَنَّ الرِّحْلَةَ إِلى قُرى الاصْطِياف الصّغيرةِ ، لَوْ كانَ النّاسُ يَرْغَبُونَ فِيها ، كانَتْ بَطِيئَةً وشاقَّةً .

أَمَّا الرِّحْلَةُ إِلى أُورُبّا فكانتْ وقْفًا على الأَغْنياءِ الّذين لديْهِمُ المالُ والوَقْتُ . لَمْ يَكُنِ النّاسُ مُنْذُ مِئةِ سَنَةٍ يحْلُمُون بِرُكُوب سيّاراتٍ عامّةٍ أَوْ خاصّةٍ كَما هِيَ الحالُ الآنَ .

كان مُعْظَمُ النّاسِ يُلازِمُون بُيُوتَهُمْ ، لأَنَّ العُطْلة المدْفوعَةَ الأَجْرِ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً ، ولَمْ يَكُنْ لِلعُمّالِ سِوَى أَيّامٍ قليلَةٍ للرّاحة

كانُوا يَتمتّعُون بالعُطْلةِ في قُراهُمُ الصّغيرةِ وبطُرُقِهِمُ الخاصّة ولِكُلِّ قرْيَةٍ عاداتُها وأَلْعابُها ومِهْرَجاناتُها . وكانتِ القُرى الّتي لَيْسَ لها ذلِكَ تُعدُّ مِن القُرَى المُتخلِّفةِ . وقدْ وصف ديكِنْز هذه الاحْتِفالات . كانَ يُحِبُّ رُؤْيَةَ النّاسِ يَتمتّعُون بأَوْقاتِهِمْ ، وكان دائِمًا مُسْتَعِدًّا لِإِمْتاع نفْسِهِ بمُشاركتِهِمْ أَفْراحَهُمْ . وهذا مِنْ أَسْباب انْتِشارِ كُتُبِهِ انْتِشارًا واسِعًا .



لَقدْ صَوَّرَ لنا ديكِنْز ، بِشكْلٍ رائِعٍ ، حياةَ النّاسِ البُسطاءِ في النِّصفِ الأَوَّلِ مِنَ القرْنِ الماضِي فوصْفُهُ تبْديلَ الجيادِ لِمرْكبةِ السَّفرِ الَّتي تنْقُلُ المُسافِرينَ على خطٍّ نِظامِيٍّ يُشْبِهُ عرْضًا سينمائيًّا . هٰذا المَشْهَدُ كانَ يتكرَّرُ في جميعِ أنْحاءِ بريطانيا مِئاتِ المرَّاتِ نهارًا وليْلًا ، ولَمْ يخْطُرْ لِأحَدٍ أنْ يَصِفَهُ سِوى ديكِنْز .

« عمَليَّةُ التَّبْديلِ تَسْتَلْزِمُ أَرْبعَةَ جِيادٍ مُسْرجةٍ ، وواقِفةٍ بهُدوءٍ في إحْدى زَوايا السّاحَةِ ، يُحيطُ بِها عَدَدٌ مِنْ سُعاةِ البَريدِ الكُسالى ذوي القُبَّعاتِ اللّامِعَةِ ، والأَزْياءِ الخاصَّةِ . وهُنالِكَ بَعْضُ المُتسَكِّعينَ المُتحَلِّقينَ حوْلَ مِعْلَفِ الخَيْلِ بانْتِظارِ وُصولِ المَرْكَبةِ

وفَجْأةً تُسْمَعُ أَنْغامُ مُوسيقيَّةٌ عاليَةٌ ، يُطْلِقُها بُوقٌ ، فتُمزِّقُ سُكونَ الشّارِعِ الرَّتيبِ . ها قَدْ أَطَلَّتْ مَرْكَبَةُ السَّفرِ العاليَةُ الجوانِبِ تُقَعْقِعُ فَوْقَ رَصيفٍ ذِي نُتوءاتٍ بارِزَةٍ . فيخْرُجُ الخَدَمُ ، ويُهْرَعُ سُوّاسُ الخَيْلِ ، والرُّكّابُ المُنْتَظِرُونَ ، وسُعاةُ البريدِ كأَنَّ مَوْجَةً كَهْرَبائيَّةً مسَّتْهُمْ . ثُمَّ تُنْزَعُ الأَحْزِمَةُ ، وتُحرَّرُ السَّلاسِلُ . تُفكُّ الخُيولُ التَّعِبَةُ راضيَةً لِتَحُلَّ مَحلَّها الخُيولُ المُرْتاحَةُ كارهةً . وتُطْوى جَوانِبُ المَرْكَبَةِ ، ويَكُونُ الحَرَسُ والحُوذِيُّونَ على اسْتِعْدادٍ تامٍّ . ويُسْمَعُ صَوْتٌ عالٍ : كُلُّ شَيْءٍ جاهِزٌ ، وتَنْطَلِقُ المَرْكَبَةُ » .



كانَ ديكِنْز يَهْتَمُّ بِكُلِّ ما يَمُتُّ لِلْمسْرح بصِلةٍ . ذلِك أَنَّه كانَ مُمَثِّلًا بارِعًا واشْتَرَكَ في عِدَّةِ تمْثيلِيّاتٍ مع هُواةِ التَّمْثيل

لَمْ يُوفِرْ ديكِنْز الفِرق التَّمْثيلِيَّة الصَّغيرة المُتنقلة مِنْ نقْدِهِ اللّاذِعِ كان يرى بِوُضُوحٍ المَواقِف الغَريبة أَو المُضحِكة فيُضَخِّمُها . فِي « نيكُولاس نيكلبي » ، نقْرأُ وصْفًا مُمْتِعًا لِفِرْقةٍ التحق بها بطَلُ القِصَّةِ الشّابُّ . ونجِدُ وصْفًا لِلسَّيِّد « كراملز » وزوْجتِهِ والمُمَثّلين الآخرين . وكان البطلُ قدْ تعرَّف إلى السَّيِّدِ « كرامِلْز » في خانٍ ، وعِنْدَ دُخُوله الغُرْفة وقع نظرُهُ على مشْهدٍ غَريبٍ يَصِفُهُ ديكِنْز كما يأْتي :

« كانَ في القِسْمِ العُلْويِّ مِنَ الغُرْفةِ فتيانِ في ملابس البحّارةِ ، يتصارَعانِ صِراعًا مَريرًا . أَحَدُهما طَويلٌ جدًّا والآخرُ قصيرٌ جدًّا . وقدْ تغلَّب القَصيرُ عَلَى الطَّويلِ وكادَ يَقْضي عَلَيْهِ . وكان يُراقِبُهما رَجُلٌ هائِلٌ ، ضَخمُ الجُثَّةِ ، جالِسٌ على زاويةِ طاولةٍ . إِنَّهُ السَّيِّد كرامِلْز نَفْسُهُ مُديرُ الشَّركَةِ » .



كانَتْ أَكْثَرُ قِصَصِ دِيكِنْز تَتَناوَلُ أَشْخاصًا غَرِيبِي الأَطْوارِ. تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ أَوِ ابْتَكَرَهُمْ أَمْثالَ السَّيِّدِ «پيكويك» والسَّيِّدِ «ميكوبَر» فَضْلًا عَنْ رِوايَتَيْنِ حَوْلَ حَوادِثَ تارِيخِيَّةٍ، وأَشْخاصٍ مِنَ التَّارِيخِ.

كانَتْ هاتانِ الرِّوايَتانِ تَدُورانِ حَوْلَ أَحْداثٍ مُثِيرَةٍ نَقْرَأُ عَنْها في كُتُبِ التَّارِيخِ. وهُوَ نَفْسُهُ أَلَّفَ كِتابًا في التَّارِيخِ عُنْوانُهُ: «تارِيخُ إِنْكِلْترا لِلْفِتيانِ»، وكانَ لَهُ اطِّلاعٌ واسِعٌ على تارِيخِ الثَّوْرَةِ الفَرَنْسِيَّةِ والمُظاهَراتِ في لَنْدَن، مِمَّا أَوْجَدَ مادَّةً تارِيخِيَّةً لِقِصَصِهِ.

الشَّعْبُ هُوَ صانِعُ التَّارِيخِ. ولا تَقْتَصِرُ كَلِمَةُ الشَّعْبِ على المُلُوكِ، والجِنِرالاتِ، والوُزَراءِ، ورُؤَساءِ الأَساقِفَةِ الَّذِينَ نَقْرَأُ عَنْهُمْ في المَدارِسِ، بَلْ تَشْمَلُ عامَّةَ الشَّعْبِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ حَياةً بَسِيطَةً أَيْضًا. وعِنْدَما يَقُومُ هٰؤُلاءِ النَّاسُ البُسَطاءُ بِحَرَكاتٍ ثَوْرِيَّةٍ، أَوْ حُرُوبٍ، يُصْبِحُونَ مادَّةً مُهِمَّةً لِكاتِبٍ مِثْلِ دِيكِنْز.

ولَمْ يَكْتَفِ دِيكِنْز بِكِتابَةِ قِصَصٍ مُمْتِعَةٍ حَوْلَ شَخْصِيّاتٍ مِنْ نَسْجِ خَيالِهِ، إِنَّما جَعَلَ الشَّخْصِيّاتِ الحَقِيقِيَّةَ وحَوادِثَ التَّارِيخِ تَبْدُو لَنا أَكْثَرَ واقِعِيَّةً. فَنَحْنُ، عِنْدَ قِراءَتِهِ، نَشْعُرُ أَنَّنا نُشارِكُ في الوَقائِعِ المُثِيرَةِ الَّتِي مَرَّ عَلَيْها الزَّمَنُ. كانَتِ الثَّوْرَةُ الفَرَنْسِيَّةُ عامَ ١٧٨٩ رَهِيبَةً بِالنِّسْبَةِ لِلشَّعْبِ الفَرَنْسِيِّ. والرَّسْمُ المُقابِلُ يُعْطِينا فِكْرَةً عَمَّا كانَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الثَّوْرَةُ.



عِنْدَما بَلَغ ديكِنْزُ الثَّلاثين مِنْ عُمْرِهِ ، أَبْحر إلى أَميركا في فصْلِ الشِّتاءِ فقطَعَ الأَطْلَسيَّ على ظَهْرِ مَرْكبٍ شِراعيٍّ ، مُجهَّزٍ بدَواليبِ التَّجْديفِ لِدفْعِهِ إلى الأَمامِ عِنْدَما لا تَكُونُ الرِّيحُ مُؤاتيةً . فَروايَتُهُ عَنْ عاصِفةٍ هَبَّتْ في البَحْرِ تُبيِّنُ لنا دِقَّةَ وصْفِهِ لأَيِّ شيءٍ يَحْدُثُ لَهُ .

لَمْ يُحِبَّ ديكِنْزُ أَميركا ، ولَمْ يُحِبَّهُ الأَميركِيُّون مِنْ أَجْلِ ما كَتَبَهُ عَنْهُمْ ، ولكِنْ ، مِنْ حُسْنِ الحظِّ ، أَحَبَّهُمْ في زِيارةٍ ثانيةٍ ، وأَصْبَحَ مَعْرُوفًا لَدَى عامَّةِ الشَّعْبِ الأَميركيِّ .

مِنْ أَسْبابِ كُرْهِهِ لأَميركا أَنَّ كُتُبَهُ طُبِعَتْ وبيعتْ هُناك دُونَ تَعْويضٍ مادِّيٍّ لَهُ ، ذَلِكَ أَنَّهُ في تِلْكَ الأَيّامِ ، لَمْ يَكُنْ هُنالِكَ تَنْظيمٌ بَيْنَ البُلْدانِ حوْلَ التَّعْويضِ المادِّيِّ لِلْمُؤلِّفينَ الأَجانبِ . وقَدْ تَغَيَّرَ هٰذا الآنَ .

كانَتْ عَيْنا ديكِنْز تَرْصُدُ كُلَّ شارِدةٍ ووارِدةٍ . وقد اسْتَفادَ مِنْ كُلِّ مُشاهَداتِهِ . وعِنْدَما عادَ إلى إنْكِلْترا نَشَرَ روايةً أَسْماها « مارْتِن تشِزلْوِتْ » تَدُورُ بَعْضُ فُصُولِها حَوْلَ أَحْداثٍ في أَميركا . لَمْ يَكُنِ الأَميركِيُّونَ راضِينَ عَنْ هٰذِهِ الرِّوايةِ ، لأَنَّ كَثيرًا مِمّا كَتَبَهُ عَنْها كانَ قَريبًا جِدًّا مِنَ الحَقيقَةِ .



أحَبَّ ديكِنْز عيدَ المِيلادِ ، مِثْلَ أكْثَرِ النَّاسِ . وقَدْ كَتَبَ مِرارًا وتَكْرارًا عَنْ حَفلاتِ المِيلادِ وبهجتها . كما تَظْهَرُ لنا في الرَّسْمِ المُقابِلِ .

كانَ أشْهَرَ ما كَتَبَ في القِصَّةِ القَصِيرَةِ «أُغْنِيَةُ عِيدِ مِيلادٍ» ، يعْرِفُ الجميعُ الرَّجُلَ البَخيلَ الهرِم «سْكرُوْج» ، وكيْفَ رقَّ قلْبُهُ في عِيدِ الميلادِ تجاوُبًا مَع الأرْواحِ الثَّلاثةِ ، فأرْسلَ أكْبر ديكٍ حبشيٍ إلَى بَيْتِ تِيم الصَّغيرِ . لَمْ تكُنْ هٰذِهِ القِصَّةُ مِنْ أحْسَنِ ما كتب دِيكِنْز ، ولكِنَّها كانتْ مِنْ أكْثَرِها إبْهاجًا . وكان ، فيما بَعْدُ ، يتمتّعُ بقِراءتِها عَلَى جُمْهُورِ المُسْتَمِعِينَ . كانتْ تعْكِسُ الكثير مِنْ حياته نفْسه .

أمّا «أُغْنِيةُ عِيدِ ميلادٍ» فهي قِصَّةٌ تُقْرأُ بمناسبةِ عيد الميلادِ وكَثيرُون مِن النَّاسِ يقْرَأُونها كُلَّ عِيدِ ميلادٍ . ولكِنَّها ليْستِ القصَّة الوَحيْدة الَّتِي يكْتُبُ فيها ديكنْزُ عنْ أبْهج وقْتٍ في السَّنَة .

في إحْدَى قِصصِه الأُولى مِنْ كِتاب «صُور ومشاهد بقلم بطْ» قِصَّةٌ بعُنْوانِ «وليمةُ ميلاديَّةٌ» يقُولُ فيها : «ليْس في الدُّنْيا أبْهَجُ مِنْ حفْلَةِ عيد الميلاد . يظْهرُ أنَّ هُنالِك سحْرًا في كلِمةِ ميلاد ، حينَ تتآلفُ القُلوبُ المُحِبَّةُ ، ويعُمُّ الجميعَ اللُّطفُ والمَيْلُ إلَى عَمَلِ الخَيْرِ . لَيْتَ عِيدَ المِيلادِ يَدُومُ السَّنَةَ كُلَّها » .



كان ديكِنْزُ يُمْضي السّاعاتِ الطِّوال في التّأْليف وهُو جالِسٌ إلَى مَكْتَبِهِ ، كما تراهُ في الرَّسْمِ المُقابِلِ . ولكِنْ حِينَ ألَّفَ أشْهر كُتُبِهِ « دافِيد كُوبر فِيلد » كان شابًّا حليقَ الذَّقْنِ والشّارِبَيْنِ .

يُمْكِنُ تسْميةُ هٰذِهِ الرِّوايةِ « قِصَّة حياته » مكْتُوبةً بقلمِه . فدافيد كوبَر فيلد هُو تشارْلز ديكِنْز نفْسُهُ . ونَحْنُ مُتَأَكِّدُونَ أنَّ ما كان يُفكِّرُ بِهِ دافيدُ الصَّغيرُ في الكِتابِ ، هُوَ نَفْسُ ما فكَّرَ بِهِ تشارْلْز دِيكِنْز حِينَ كانَ وَلَدًا في لَنْدَنَ .

فمُسْتَودعُ الصِّباغِ الأَسْوَدِ ، وحيُّ الفُقراءِ في لَنْدن ، وسِجْنُ مارْشلْسي ، والشُّغْلُ المُرْهِقُ ، حَتَّى والِدُهُ المَحْبُوبُ ، وغَيْرُ المُوَفَّقِ ، كُلُّ هٰذِهِ تَظْهَرُ في قِصَّةِ « دافيد كُوبَر فِيلْد » .

إذا ما زُرْنا مُتْحَفَ ساوْث كِنْزِنْغتَن في لَنْدَن ، يُمْكِنُنا رُؤْيَةُ الصَّفَحاتِ الأُولَى مِنْ رِوايَةِ « دافيد كُوبَر فِيلْد » كما خطَّها ديكِنْز بِيَدِهِ . ومِمّا يسْتَرْعي الاهْتِمام أَنَّهُ جرَّبَ عِدَّةَ أسْماءٍ لبطل الرِّواية فكتَبَ كوبرنوي ، وكوبرستون ، وكوبر فُل . فلما قرَّ رأْيُهُ على كُوبر فِيلْد . ونُلاحِظُ أيْضًا تصْحيحاتٍ عديدَةً بألْوانِ حِبْرٍ مُخْتلِفَةٍ ونَكادُ نَراهُ ، وهُوَ يَتذَكَّرُ أَيّامَ حَداثَتِهِ ، يُغَيِّرُ كلمةً ، أَوْ يُضِيفُ أُخْرَى حَسْبَما تُوحِي إلَيْهِ الذّاكِرَةُ . ومِنْ هُنا تَبْدُو لَنا قِصَّتُهُ حقيقيَّةً .



وبمُرور السّنين داع صِيتُهُ ، وطَفِق يتنقَّلُ مِنْ بلادٍ إلى أخْرى ، وكانتْ لهُ بُيُوتٌ في فرنسا ، وإيطاليا ، ولَنْدن ، وعلى الشّاطئ الجُنوبيّ لإنْكِلْترا . وبعْد أنْ أصْبح واحِدًا مِنْ أشْهر كُتّاب العالمِ ، وذا مالٍ وفيرٍ ، اشْترَى المنْزِلَ الّذي عاش فيهِ إلى آخِرِ أيّام حياتِه

وهكذا تمكّن مِنْ تحْقيق حُلْمِ تشارلْز ديكِنْز الصَّغيرِ في طُفُولَتِه رأى بيْتًا غريب الشَّكْل على «تَلَّةِ غاد» قُرْب تشاتام ، فقال لِنفْسِهِ : كمْ يكُونُ رائِعًا أنْ يسْكُنَ المرْءُ في منْزِلٍ كهذا ؟ وقَدْ قال لَهُ أبُوهُ مرَّةً إنّهُ إذا جدَّ وكدَّ يسْتطيعُ شِراءَ ذلِك المنْزل .

ولَمْ يكُنْ يخْطُرُ بِبالِ جُونْ ديكِنْز أنَّ كلِماتِهِ لابْنِهِ الصَّغيرِ تشارلْز سوْف تتحقَّقُ ولكِنَّها تحقَّقتْ فِعْلًا . وبعْدَ أرْبعين عامًا اشْترَى ديكِنْزُ «تَلَّةَ غادْ» .

وفي عامِ ١٨٥٨ كَتَبَ لِصديقٍ لَهُ قائِلًا « مسْكني الصَّغيرُ هُوَ بَيْتٌ مَهيبٌ مِنَ الطُّوبِ الأحْمَرِ . لَقَدْ زِدْتُ عليْهِ أقْسامًا وألْحَقْتُ بِهِ إضافاتٍ كَثيرةً مُتعَدِّدَةَ الأشْكالِ » .



كانَ دِيكِنْز يَسْتَمْتِعُ بِقِراءَةِ قِصَصِهِ بِصَوْتٍ عالٍ . وقَدِ ٱضْطُرَّ إلَى ذٰلِكَ عِنْدَما قامَ بِجَمْعِ بَعْضِ المالِ مُساعَدَةً لِأُسْرَةِ أَحَدِ أَصْدِقائِهِ القُدَماءِ . فَصارَ جُمْهُورُ المُسْتَمِعِينَ يَشْتَرُونَ بِطاقاتِ دُخُولٍ لِلإِصْغاءِ إلَى تِلْكَ القِراءاتِ ، ومِنْ ثَمَّ اسْتَغَلَّ فِكْرَةَ القِراءَةِ أَمامَ الجَماهِيرِ لِمَصْلَحَتِهِ الخاصَّةِ .

وفي السَّنَواتِ العَشْرِ الأَخيرَةِ مِنْ حَياتِهِ ، أَصْبَحَتِ القِراءاتُ العامَّةُ في إنْكِلْترا وأَميركا مَشْهُورَةً . ولَمّا كانَ دِيكِنْز مُمَثِّلًا بارِعًا ، فَقَدِ ٱسْتَطاعَ تَمْثِيلَ شَخْصِيّاتِ النّاسِ الغَريبي الأَطْوارِ الَّذينَ أَبْدَعَهُمْ خَيالُهُ الواسِعُ ، وكانَ يُجَسِّدُهُمْ في تَمْثِيلِهِ ، حَتَّى قيلَ إنَّهُ كانَ نَفْسُهُ يَبْكي مِنْ شِدَّةِ تَأَثُّرِهِ في بَعْضِ المَشاهِدِ .

لَمْ تَكُنْ هٰذِهِ التَّمْثِيلِيّاتُ مَأْلُوفَةً عام ١٨٦٠ ، ولَمْ يَكُنْ دِيكِنْز يُغَيِّرُ المَشاهِدَ أَوِ المَلابِسَ ، بَلْ كانَ يَكْتَفي بِالوُقُوفِ على خَشَبَةِ المَسْرَحِ وأَمامَهُ مِنَصَّةٌ صَغيرَةٌ . أَمّا الشَّخْصِيّاتُ فَكانَتْ تَبْرُزُ كَأَنَّها حَقيقِيَّةٌ بِفَضْلِ مَهارَتِهِ العَجيبَةِ في التَّمْثِيلِ .

إنَّ أَسْفارَهُ مِنْ مَكانٍ لِآخَرَ ، في جَميعِ الفُصُولِ ، وبِواسِطَةِ جَميعِ وَسائِلِ الٱنْتِقالِ ، قَدْ أَنْهَكَتْ قُواهُ في آخِرِ المَطافِ . فَهُوَ لَمْ يَكُنْ لِيَتَخَلَّفَ عَنْ مَوْعِدِهِ مَعَ جُمْهُورِهِ ، مَهْما قَسا عَلَيْهِ المَرَضُ . وما أَشَدَّ ما قَسا عَلَيْهِ في أَميركا .



وفي إحْدَى سَفَراتِهِ هٰذِهِ تَدَهْوَرَ القِطارُ الّذي كانَ يَسْتَقِلُّهُ فأُصِيبَ في ذٰلِكَ الحادِثِ ، كما أُصِيبَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ المُسافِرِينَ إصاباتٍ خَطِيرَةً أَوْ مُمِيتَةً . ورُغْمَ إصابَتِهِ فقَدْ عاوَنَ رِجالَ الإنْقاذِ عِدَّةَ ساعاتٍ .

لَقَدْ أَثَّرَتْ هٰذِهِ الصَّدْمَةُ في أَعْصابِهِ ، فلَمْ يُشْفَ مِنْها قَطُّ . وعِنْدَ قِيامِهِ بِجَوْلَةٍ في أميرِكا لِإلْقاءِ المُحاضَراتِ والقِراءاتِ العامَّةِ ، كانَ لا يَزالُ مُتَأَثِّرًا مِنْ هٰذِهِ الصَّدْمَةِ .

تُعَدُّ حَوادِثُ السِّكَّةِ الحَدِيدِيَّةِ كارِثَةً . ولَمْ تَكُنِ الحَوادِثُ في عَصْرِ دِيكِنْز أَكْثَرَ مِنْها اليَوْمَ . ولكِنَّ السِّكَكَ الحَدِيدِيَّةَ عامَ ١٨٦٤ كانَتْ بَطِيئَةً فإذا ما وَقَعَتْ حادِثَةٌ ، لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ إرْسالُ النَّجْدَةِ – مِنْ مُمَرِّضاتٍ وأَطِبَّاءَ ، وعَرَباتِ إسْعافٍ – بالسُّرْعَةِ اللّازِمَةِ ، كما هِيَ الحالُ الآنَ .

تَبْدُو لَنا قِطاراتُ عامِ ١٨٦٤ غَرِيبَةً جِدًّا ، وسَتَبْدُو أَكْثَرَ غَرابَةً حِينَ تَخْتَفِي القاطِرَةُ البُخارِيَّةُ تَمامًا عَنْ خُطُوطِ السِّكَّةِ الحَدِيدِيَّةِ ، وحافِلاتُ الأَمْسِ تَخْتَلِفُ كُلِّيًّا عَنِ الحافِلاتِ الّتي نَعْرِفُها اليَوْمَ . نَرَى في الرَّسْمِ المُقابِلِ أُنْمُوذَجًا لِلْقِطارِ الّذي سافَرَ فِيهِ دِيكِنْز إبّانَ وُقُوعِ الحادِثَةِ قُرْبَ «سْتَيْبِلْ هيرسْت» في كَنْت . ومَعَ أَنَّ القِطارَ لَمْ يَكُنْ يَسِيرُ بالسُّرْعَةِ الّتي تَسِيرُ بِها قُطُرُ الدِّيزِلِ اليَوْمَ ، لكِنَّ حافِلاتِهِ لَمْ تَكُنْ مَتِينَةَ الصُّنْعِ كحافِلاتِ اليَوْمِ .



كانَ دِيكِنْز يَكْتُبُ آخِرَ مُؤَلَّفٍ لَهُ : « لُغز إدْوين درُوود » حِينَما وافَتْهُ المَنِيَّةُ في مَنْزِلِهِ بِتَلَّةِ « غاد » . نَحْنُ لا نَعْرِفُ كَيْفَ أَرادَ دِيكِنْز أَنْ تَنْتَهِيَ قِصَّتُهُ ، ولا نَعْرِفُ حَلَّ اللُّغْزِ . لَقَدْ حاوَلَ عَدَدٌ مِنَ المُؤَلِّفِينَ إتْمامَ الكِتابِ ، ولٰكِنَّهُمْ لَمْ يُوَفَّقُوا .

ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ المُؤَلِّفِينَ الإنْكِلِيزِ مَنْ يَسْتَطِيعُ الكِتابَةَ بِمُسْتَواهُ . كانَتْ لَهُ طَرِيقَةٌ خاصَّةٌ في رِوايَةِ القِصَّةِ بِحَيْثُ يُشَكِّلُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْها مُتْعَةً شَخْصِيَّةً لَهُ ، ولَنا نَحْنُ القُرّاءَ .

هُنا يَكْمُنُ السِّرُّ في انْتِشارِ شَخْصِيّاتِهِ وشُيُوعِها حَتّى عِنْدَ أُناسٍ لَمْ يَقْرَأُوا كُتُبَهُ . فَكَثِيرٌ مِنَ العِباراتِ والاصْطِلاحاتِ الَّتي ابْتَكَرَها دِيكِنْز أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنَ اللُّغَةِ الإنْكِلِيزِيَّةِ . ولَيْسَ هُنالِكَ كاتِبٌ آخَرُ ، سِوَى شكسْبِيرَ ، ابْتَكَرَ شَخْصِيّاتٍ كَثِيرَةً يُشارُ إلَيْها بالبَنانِ ، وعِباراتٍ لا تَزالُ قَيْدَ الاسْتِعْمالِ .

وفي آخِرِ أَيّامِ حَياتِهِ المَمْلُوءَةِ نَشاطًا ، والتَّوّاقَةِ إلى عَمَلِ الخَيْرِ ، وقَبْلَ وَفاتِهِ بِثَلاثَةِ أَشْهُرٍ ، تُوِّجَتْ حَياتُهُ بالشَّرَفِ الأَوْفَرِ ، عِنْدَما اسْتَقْبَلَتْهُ المَلِكَةُ فِكْتُورِيا في قَصْرِ بكنغهامَ اعْتِرافًا بِفَضْلِهِ وعَبْقَرِيَّتِهِ .



كويلب

« مخزن الأنتيكا القديم »



القبطان كوتل

« دومبي وابنُه »



ساري غامب

« مارتن تشوزلويت »



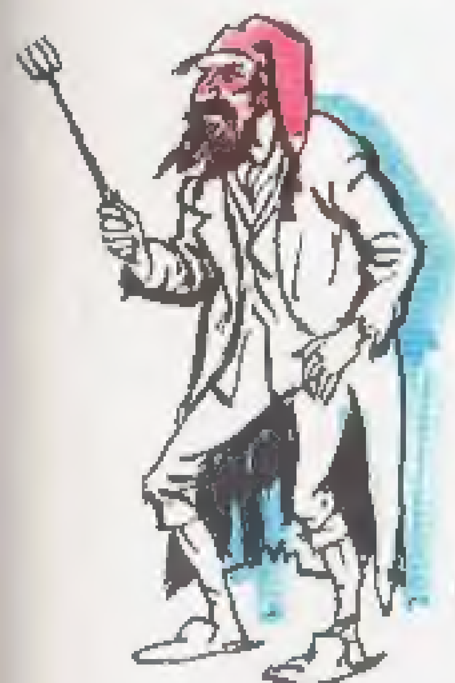
بِل سايكس

« اوليفر تويست »



المحتال البارع

« اوليفر تويست »



فاغِن

« اوليفر تويست »



سارجنت بزفُز

« أوراق پيكوك »



توني وِللر

« أوراق پيكوك »



السيد ستَرايفر

« قصّة مدينتين »



السيد پكسنيف

« مارتن تشوزلويت »



دوللي ڤاردن

« بارنبي رودج »



السيد تورڤيدروب

« بليك هاوس »



فاني سكويرز

« نيكولاس نِيكلبي »



السيد سكويرز

« نيكولاس نِيكلبي »



نيومان نوغز

« نيكولاس نِيكلبي »



يوريا هيپ

« داڤيد كوپرفيلد »



السيد دِك

« داڤيد كوپرفيلد »



سكروج

« أغنية عيد ميلاد »

السِّلْسِلَةُ ٱلتَّارِيخِيَّةُ

١ – جان دارْك
٢ – مارْكو بولو
٣ – الكابِتِنْ سْكوت
٤ – نابولْيون
٥ – كليوباترا وَمِصْرُ ٱلقَديمَةُ
٦ – تْشارْلز ديكنْز
٧ – كْريسْتوفَر كُولومْبوس
٨ – الإِسْكَنْدَرُ ٱلأَكْبَرُ
٩ – الحَضاراتُ ٱلكُبْرى : مِصْر
١٠ – الحَضاراتُ ٱلكُبْرى : ٱليونانُ
١١ – فْلورَنْس نَيْتِنْغيل
١٢ – الحَضاراتُ ٱلكُبْرى : روما
١٣ – القُبْطانُ كُوكْ
١٤ – روبَرْت لويس سْتيفِنْسون
١٥ – هَنيبَعْل
١٦ – الحَضاراتُ ٱلكُبْرى : كْريت
١٧ – الحَضاراتُ ٱلكُبْرى : ٱلفايْكِنْجز
١٨ – الحَضاراتُ ٱلكُبْرى : ٱلآزْتِك

Series 561 Arabic